عبق قريش في شعر عبيد الله بن قيس الرّقيّات

م. م. ميادة عبد القادر عمران خطاب
جامعة بغداد/ كلية الآداب

توطئة:

شهد العصر الاموي (٤١- ١٣٢هـ) حكماً وراثياً وبناءً اجتماعياً وحضارياً جديداً، مهد ذلك بتطور مجالات العلوم الاخرى منها (الفكرية والعلمية والاقتصادية والادبية) بشكل واسع النطاق ولاسيما في بيئة الحجاز، فضلاً عن ذلك فقد شهد العصر اتساع حركة الفتوح فيه على الرغم من وجود احزاب واضطرابات وفتن أهلية وثورات داخلية، وصراعات سياسية عنيفة حول الخلافة، كل ذلك ادى الى انتعاش الحركة الادبية، ولاسيما الشعر السياسي، وشعر المذاهب الإسلامية، فتطور الادب وازدهر في تلك المدة، فظهرت لنا طبقة من الشعراء الذين نهضوا بهذه الحركة الادبية، فأثروا في الشعر العربي بما أضفوا إليه من تطور وتجديد- ولعل خير من يمثل ذلك الشاعر القرشي[١] عبيد الله بن قيس الرّقيّات الذي تفاعل مع احداث عصره، فانصهر بها انصهاراً، وانغمس فيها انغماساً فاندفع مشاركاً بيده ولسانه، فانعكست معالمها على حياته وشعره. فجاء شعره سلاحاً ذا حدين وصحيفة ناطقة لمبادئ وآراء مذهبه الزبيري، وقد اتخذ من السياسة ظاهرة فنية لابراز قدراته وطاقاته الابداعية، ومدى تعصبه لقبيلة قريش، لهذا نجدهُ يسلط الضوء عليها، وعلى اعلامها وشخصياتها مفتخراً أو مادحاً، وكثيراً ما نجدهُ يفتخرُ بنفسه وعراقة نسبه وشجاعة عشيرته المضرية التي لا تضم الا الفرسان الشجعان، ويكفيه فخراً واعتزازاً بان نسب قبيلته يرجع الى النبي الاعظم محمد (صلى الله عليه وسلم) القرش المكي، ومنها خلفاؤه الراشدون، والاوصياء والشهداء اذ يقول[٢]:

نَحْنُ مِنّا النَّبيُّ الأُمِّيُّ والصَّدّيقُ ... منّا التَّقيُّ والخُلَفاءُ
وَقتيلُ الأَحْزابِ حَمْزَةُ مِنّا ... أَسَدُ اللهِ والسَّناءُ سَناءُ
وَعَليٌّ وَجَعْفرُ ذُو الجنَاحَيْـ ... ـنِ هُناكَ الوَصيُّ والشُّهداءُ
والزُّبَيْرُ الذي أجابَ رسُولَ الـ ... ـلّهِ في الكُرْب والبَلاءُ بلاءُ
وَالّذي نَغَّص ابنَ دَوْمةَ ماتو ... حِي الشياطينُ والسُّيُوفُ ظماءُ

ومن شدة اعتزازه بعراقة نسبه وعشيرته فإنه يقول[٣]:

إنّـــي امْـــرُؤٌ لا يُـــزْدرى ... دَفعـــي عـــنَ اعْـــراضِ العَشـــيرةْ
فـــي بَيتْهـــا حسَـــباً وَمـــنْ ... أخـــلاقٍ صَـــالحهَا ســـرِيَرهْ
أنْفـــي القراقيـــرَ الصِّـــغا ... رَ وأحْطِهـــمُ الفُلْـــكَ الكَبيـــرَةْ
أُمِّـــي لقَـــيْسٍ فـــي الـــذُّرى ... وَأبـــي لعاتكِـــةَ المَهيـــرةْ
بِنْـــت العَواتـــكِ مـــنْ بنـــي ... ذَكْـــوانَ لا عَـــدمْى فقيَـــرةْ
فـــي بَيْتهـــا عَـــدَدُ الرّجَـــا ... لِ وَحَوْلهـــاَ مُضَـــرُ الكثيـــرُهْ
بُنيـــتْ عَلَيْهـــا مِثْلمَـــا ... بُنيَـــتْ عـــل البَيْـــتِ الضَّـــفيرَهْ[٤]

من خلال الابيات تتجلى شجاعة الشاعر، ونخوته الاصيلة وطيب أصله، وعراقة نسبه، مستمداً شجاعته وقوته وعراقة أصله من عشيرته المضرية التي لا تضم إلا الشجعان، فأمهُ قتيلة من نسل اليأس بن مضر، وعمه قيس عيلان بن مضر، وأبوه من عامر بن لؤي.

ويمضي الشاعر مفتخراً بنسبه، وعراقة أصله الطيب، وبقبيلته قريش، اذ يقول[٥]:

نَحْـــنُ الصَّـــريحُ إذا قُرَيْـــ ... شُ قـــامَ مِنْهـــا النّاســـبُ
مِـــنْ ســـرّهَا وأرُومِهـــا ... إذْ لـــلأَرُومِ مرَاتـــبُ

وعظم الشاعر من شأن قبيلته قريش، ورفع منزلتها، بين القبائل معتزاً بنسبه لها، إذ يقول[٦]:

وَقَـــدْ عَلمـــتْ قُـــرَيشُ ... أنّنـــا فَـــرْعُ إذا أنتســـبوا
مَـــرَاجِحُ فـــي صُـــفُوفِهمُ ... وفرســـانٌ إذا رَكبُـــوا
وأخْـــوَ الـــي بَنُـــو ليْـــثٍ ... وَضَـــنْءُ نســـائهم نُصُـــبُ
هـــمُ منَعُـــوا تَهامَـــةَ حُيـــ ... ثُ تَحْمـــي بعْضَـــها العـــرَبُ
زمـــانُ نفَـــى العَزيـــزُ بهـــا ... الـــذليلَ وَأمْعـــنَ الهـــرَبُ[٧]

يفتخر الشاعر بنسبه لقبيلته قريش، بأنّها فرسانها شجعان حلماء لا يأبون الذل والهوان، والضيم والخسران.

ويستمر الشاعر بتقديم قصائده المفتخرة لقبيلته قريش، مؤكداً بذلك عراقه أصله، وشجاعته المستمدة من شجاعة قبيلته، وقوته وفروسيته، اذ يقول[٨]:

كُلَّمـــا أوْ جفَـــتْ إلـــيْهِمْ ركَـــابي رَجعَـــتْ مـــنْهمُ بأهـــلٍ وَمـــالِ
إنَّ شـــيْباً مـــنْ عـــامرِ بـــن لُـــؤيّ وفتُـــوَّا مـــنْهمُ رقـــاقَ النِّعـــالِ
لَـمْ يَنَـامُوا إذْ نَـامَ قَـوْمُ عـن الوتـْ ـرِ بحـــرْكٍ فعَرْعَـــرٍ فالسِّـــخالِ
عَلَّقُـــوا أرْســـنَ الجيّـــاد وَمَـــرُّوا جانبيْهـــا بشـــاحجَاتِ البِغَـــالِ
كُـــلَّ خيفانـــةٍ مُجنَّبـــة الرّجْـــ ـــلـيْنِ عَجْلـى خفيفـةٍ فـي الشَّـمالِ
مرَطـــى الشَّـــدِّ كالعُقـــابِ تـــدَلّتْ بـــيْن نيقـــيْنِ مـــن رُءوسِ الجبـــالِ
وَهَـــزيمٍ أجـــشَّ يسْـــتنُّ بالـــدَّا رعِ يـــومَ النِّهـــابِ والأنْفـــالِ
جُرْشـــعٍ يَمْـــلأُ الحـــزامَ، كـــأَنَّ الـــ ـــجَهْد يَجْلُـــو أديمَـــهُ بصـــقَالِ
بُـدِّلتْ بالشَّـعير والخفْـض والقـتّ وَمَسْـحِ الغـلام تحـتَ الجـلالِ
غـارة اللَّيـل والنَّهـار فمَـا تُصْـ ـبـــحُ إلا مُحِسَّـــةً بقتَـــالِ[٩]

ومن شدة فخره بقبيلته واعتزازه بها[١٠]، يمزجُ بين فخره بنفسه وعشيرته وقبيلته، إذ يقول[١١]:

وَقَـدْ نلْـتَ فرْعـاً مـن لُـويِّ بـن غالـب دعـائم، كانـتْ مـن خيـار الـدَّعائمِ

ويفتخر الشاعر في موضع آخر بشجاعته، وحسن اخلاقه وخصال الكريمة ومبادئه التي تأبى معاشرة الخل الكاذب، ويقول مفتخراً بنفسه[١٢]:

إنّـــي أمـــرُؤُ لا يطَّبـــي وُدّي الخليـــلُ الكـــاذبُ
حسَـــنُ الخليقَـــةِ والمـــوَدّة مـــا اسْـــتقامَ الصّـــاحبُ
هَنّأتـــهُ ســـلْمي وأعْـــ ـــلم بغْـــدُ كيْـــفَ أحَـــاربُ
عنْـــدي لجـــامُ للرّجـــا لِ وَمخلـــبُ وَكَلالـــبُ
مـــنْ ألْقـــهِ فـــي رأســـهِ يُلْحـــحْ عليـــهِ القَاتـــبُ
ويَلـــنْ ويَنْســـقْ لـــي كمَـــا ســـاقَ المطـــيَّ الرّاكـــبُ

ومن شدة حبه وعشقه لقومه، فأنّه يبكي عليها، إذا أصابها ألم وحزن، فيقول[١٣]:

لـو بكـتْ هـذه السَّماءُ علـى قـوْم كـــرام بكـــتْ عليْنـــا السّـــماءُ
نحْـــنُ منّـــا النَّبـــيُّ والصـــدّيقُ منّـــا التقـــيُّ والخلُفـــاءُ

ويتحول الشاعر الى ابيات مليئة بالاحساس والعوطف الجياشة، وبالاعتزاز الشديد والحب الكبير، نحو قبيلته قريش، اذ يقول[١٤]:

حَبَّذا العَيشُ حينَ قومي جميعُ ... لَمْ تفَرّقْ أمُورها الأهْواء
قبْلَ أنْ تَطْمعَ القبائلُ في مُلْـ ... ـكِ قُريْشٍ وتشْمتَ الأعداءُ
أيُّها المشتهي فناءَ قُريشٍ ... بيد الله عُمْرُها والفْناءُ

الابيات اعلاه تدل على ان الشاعر قرشي في آماله[١٥]، وحريص كل الحرص على وحدة قبيلة قريش وحقها في حكم سائر العرب. ونجد الشاعر يؤكد على نزعته القرشية، من خلال أبياته، وأنّها ستظلُ عزيزة الجانب عالية المجد، مرفوعة الهامة.

ويمضي الشاعر في مدح قبيلة قريش، متخذاً شخصياتها منفذاً لتجسيد نزعته القرشية، ومدح مناقبهم من خلال مديحه لعبد الله بن الزبير: اذ يقول[١٦]:

أنْتَ أبنُ معْتلجِ البطا ... حَ كُديِّها فكدَائها
فالبيْتِ ذي الأرْكانِ فالـ ... ـمُستَنِّ من بطحائها
فمَحلِّ أعْلاها الى ... عرفاتُها فحرَائها
منْ سرّها فيها ومَعـ ... ـدنِ برّها ووَفائِها
أوْفى قُريُشٍ بالعُلى ... في حُكمْها وقضَائِها
وأشدُّها آخيَّةً ... في عزّها وثَرَائها
وأمدُّها عنْدَ العُلى ... كفّاً بحبْلِ رشائِهَا
ولأنتَ أعْلمُها بهَا ... وأصحُّها منْ دائِهَا
وأتَمُّها نسباً إذا ... نُسبتْ الى آبائِهَا
وَلدَتْكَ عائشَةُ التي ... فضَلتْ أرُومَ نسائِهَا

يضفي الشاعر على ممدوحه عبد الله بن الزبير، من المعاني الدينية والسمات العربية الأصلية، محاولاً بذلك تثبيت وتأييد خلافته ونصر دعوته، وترغيب الرعية فيه، فهو من سلالة ونسب قريش، ومن الاشراف والفرسان من بني قريش، ومن اعظمها منزلة وأرفعها شأنا.

ويمضي الشاعر في مدحه الشخصيات بني قريش، وملوكها وخلفائها مؤكداً اعتزازه بالقبيلةَ وبنسبها وعراقة أصلها، إذ يقول مادحاً مصعب ابن الزبير[١٧]:

لَمصُـــعبُ عنْـــدَ جـــدَّ القَّـــوْ ... لِ أكْثرُهـــــــا وأَطيَبُهـــــا
وَأمْضـــــــاها بألْويـــــــةٍ ... يسُـــــدُّ الفـــــجَّ مقْنبُهـــــا
إذا خرجـــــــتْ برابيـــــــةَ ... ســـــــراياهّا وَموْكبُهـــــا
بنصْـــــــرِ الله يَعْلوُهـــــا ... وَيمريهـــــــا ويَغْلبُهـــــا
ويـــــــذْكيها بكفَّيـــــــهِ ... إذا مـــــــالاحَ كوْكبُهـــــا

ويتخذ الشاعر من مديحه لمصعب، مديحاً للقرشيين جميعاً، إذ يقول[١٨]:

فأباحَ العراقَ يَضْربهُمْ ... بالسيفِ صـــلْتاً وفـــي الضِّـــراب غـــلاءُ
غُيِّبـــوا عـــنْ مـــواطنٍ مُفظعـــاتِ ... لـــيسَ فيهـــا إلاّ السُّـــيوفَ رخَـــاءُ
فسـعوا كـيْ يُفللِّـوكَ وَيـأبى الـلـ ... ـــلّهُ إلاُ الـــذّي يـــرى ويشـــاءُ
حســـداً إذْ رأوْكَ فضَّـــلك اللّـــ ... ـــهُ بمـــا فُضِّـــلتْ بـــه النُّجبـــاءُ
فعلـــى هـــدْيهم خرجْـــت ومـــا ... طِبُّكَ فـــي الله إذ خَرجْـــتَ الرِّيـــاءُ

إنْ تعـشْ لانـزلْ بخيـرْ وإنْ تهَـ ... ـلكْ نَـزُلْ مثـل مـا يـزُولُ العمـاءُ
إنَّمـا مُصـعبُ شـهابُ مـن اللّـ ... ـهِ تجَلّـتْ عـنْ وجْهـهِ الظَّلْمـاءُ
ملْكـهُ مُلْـكُ قـوّةٍ لـيسَ فيـه ... جبـــرُوتُ ولا بـــه كبْريـــاءُ
يتّقـي الله فـي الامـور وقـد أفْ ... لـحَ مـنْ كـانَ همَّـهُ الاتّقـاءُ
إنّ لله درَّ قـــوْمٍ يريـــدُو ... نـكَ بـالنَّقْصِ والشَّـقاءُ شـقاءُ
بعْـدَ مـا أحْـرزَ إلالـهُ بـك الرَّتْـ ... ـقَ وهـرَّتْ كِلابـكَ الأعْـداءُ[١٩]

مدح الشاعر مصعب بن الزبير، ويصفه بصفات الكمال، ويجلهُ، مجسداً لصورة الفارس الشجاع، مشعلاً الغيرة والحسد في نفس عبد الملك بن مروان، فهذا الكوكب الوضاح، الذي يمحو آية الليل قادرا على توجيه كلمة قريش ولم شملها، فهذا الفارس خير من يمثلهم ويحميهم ويحافظ عليهم.

ومن الشخصيات التي مدحها ابن قيس الرقيات، وسلط الضوء عليها، مدحه لعبد العزيز بن مروان[٢٠]:

لاحَ سناهُ من نخلِ بيثْربَ فالْـ ـــحرَّةِ حتى أضا لنا إضما
أسْقى به اللهُ بطنَ طيْبة فالـ ـــرَّوْحَاءِ فالأخشبيْنِ فالحَرَما
أرضُ بها تنْبتُ العشيرة قدْ عشْنا وكُنّا منْ أهْلها علما
فُجعْتُ بالغُرّ من أُميّة حا شا واحداً نجتْلّي به الظّلما
أعني ابنَ ليلى عبد العزيز ببا بليوُنَ تغْدُ أجفانهُ رذُما
يلتَفِتُ النَّاسُ حول منبره إذا عمُودُ البريَّة انهَدَما
مجرَّبُ الحزم في الامورِ وانْ خفَّتْ حُلومُ بأهْلِها حَلُمَا[٢١]

يضفي الشاعر في الابيات اعلاه، على مدوحه صفات وسقات اخلاقية رفيعة، مجسداً عراقة نسبه، وطيب أصله. اذ يقول أيضاً[٢٢]:

أثنِ على الطَّيِّب ابن ليلى إذا أثنيْتَ في دينهِ وفي حسَبهْ
منْ يصْدقُ الوعْدَ والقتالَ ويخْـ شَى الله في حِلْمِهِ وفي غَضَبهِ
ومَنْ تفُيضُ النَّدى يداهُ ومنْ يَنْتَهِبُ الحمْدَ عندَ مُنْتهبهْ
أُمُّكَ بيْضاءُ من قضاعة في الْـ بيتِ الذي يُستَظلّ وفي طُنُبهْ
وأنْتَ في الجَوْهَرِ المهُذَّب منْ عبدِ منافٍ يَداكَ في سَبَبهِ

يمدح الشاعر عبد العزيز بن مروان، بصفات تؤكد على عراقة نسبه من جهة امه، وتكاد هذه الظاهرة، (تجسيد النزعة القرشية) تميزه عن شعراء عصره.

ويمضي الشاعر في مدح أو فخر أو رثاء بعض الشخصيات لتجسيد عراقة ونسب قبيلته قريش، اذ يقول مادحاً بشر بن مروان[٢٣]:

يابشْرَ يا ابن الجعْفريَّة ما خلقَ الإله يدَيْكَ للْبُخْلِ
جاءتْ به عُجزُ مُقابلةٌ ما هُنّ منْ جَرْمٍ ولا عُكْلِ

***

أنْتَ ابنُ الأشياخ الذّين لُهمْ في بطنِ مكَّة عِزّةُ الأصْلِ

اسبغ الشاعر على ممدوحه صفات اخلاقية، تؤكد على عراقة نسبه وكرمه النابع من طيب اصله ونسبه من جهة امه الحرة النجيبة الشريفة.

ومن الشخصيات التي مدحها الشاعر عبد الله بن جعفر[٢٤]:

للقّــاءِ ابــنِ جَعْفَــرٍ ذي الجنَاحَيــْ ... نِ الكـريمِ النِّصـابِ فـي الأسْـلافِ
حـلّ فـي الجـوْهَرِ المهـذّبَ مـنْ هَـا ... شِـمَ أهْـلِ النَّـدى وأهْـلِ العَفـافِ
عُــودُهُ فــي الكِــرَام عــودُ نُضــارٍ ... لا كعيــدانِ خــرْوعٍ وخِــلافِ
يَهَــبُ الخَيْــلَ والوَلائــدَ والبُخــ ... ــتَ بأَجلالهــا مــعَ الأخْفــافِ
ذاكَ عبْـدُ الإلــه ذو الجُـودِ والفضــْ ... لِ و[ذو] المُكْرمــاتِ والاسْــعافِ
مـا بقـا فـي الـبلادِ عُـودُ نضـيرُ فـي ... أرَاكٍ أوْ ســــلامٍ وغَــــافِ

هذه الابيات تؤكد على مدح عبد الله بن جعفر، وتجسد عراقة نسبه واصله:

ويقول أيضاً مادحاً عبد الملك بن مروان[٢٥]:

إنَّ الفنيــق الــذي أبُــوهُ أبــو الــ ... ــعاصي، عليْــه الوقــارُ والحُجــبُ
خليفَــــةُ اللهِ فــــوْقَ منبــــره ... جفّــتْ بــذاك الأقــلامُ والكُتُــبُ
يعْتــدلُ التّــاجُ فــوقَ مفرقــة ... علــى جبــينٍ كأنّــهُ الــذَّهبُ
أحفظُهــمْ قــوْمهمُ بــاطِلهمُ ... حتَّــى إذا حــاربوهُمُ حربــوا
تجــرّدوا يضْــربونَ بــاطِلهم ... بــالحقّ حتــى تبــينَ الكــذبُ
لَيْســوُا مفــاريحَ عنــدَ نــوْبتهمْ ... ولا مجــازيعَ ان هــمُ نكبُــوا

يسبغ الشاعر على ممدوحه، بهالة من الصفات الدينية لتسجيد صورة الخليفة العربي المسلم من النسب والحسب والشجاعة والصدق والكرم والعلم، ويمدحهُ أيضاً بالتاج والتلاق الجبين، نوع من احداث تطوير لمضامين المدحية، فيقول[٢٦]:

يَعْتــدلُ التّــاجُ فــوقَ مفْرقــه ... علــى جبــينٍ كأنّــهُ الــذَّهبُ

فسمع الخليفة عبد الملك بن موران هذا البيت فأُعجب به.

ومن شدة تعلقه بقبيلته قريش وحبه لها، فأنه يحزن لحزنها، ويفرح لفرحها، فان ملامح الحزن والألم تظهر في ملامح وجهه وبتعابير وبكلمات مؤثرة ومجسدة في قصائده، فانه يصور لنا ما أختلجت نفسه من عواطف حزينة اتجاه قومه وعشيرته، وهنا يصور لنا قبيلة بكر بن وائل وتميم عن نصرتها، اذ يقول[٢٧]:

فمــا نصــحَتْ لله بكْــرُ بــنُ وائــلٍ ... ولا صــبَرتْ عنــد اللَّقــاءِ تمــيمُ
ولــوْ كــانَ بكرْيــاً تعطّــف حوْلــهُ ... كتائــبُ يغْلــي حمْيُهــا ويَــدُومُ
ولكنّــهُ ضــاعَ الــذِّمامُ ولــمْ يَكُــنْ ... بهــا مُضــريٌّ يــومَ ذاكَ كــريمُ

ويعبر الشاعر عن ألمه وحزنه لفراق أحبابه، واصدقائه وحرصه الشديد على ذكرهم وتمجيدهم، اذ يقول راثياً عبد الواحد[٢٨]:

مَا خيْرُ عَيْشٍ بالجزيرةِ بُعْدها عثرَ الزَّمانُ وماتَ عبدُ الواحد
ماتَ النَّدى والجُودُ معهُ وضمّناً قبْرَ الكريمِ الأرْيحيِّ الماجدِ
ذهب الرّجالُ الصالحون وبُقِّيتْ ضعفى الرِّجال لدى الزَّمانِ الفاسدِ

يضفي الشاعر على ممدوحه عبد الواحد بصفات اخلاقية رفيعة، واسلامية متمثلة بخصال حميدة، واخلاق نبيلة إسلامية خلد ذكره من خلالها.

ويمضي الشاعر معبراً عن حزنه وألمه من فراقه احبابه، واصدقائه، ويدعو للاخذ بثأره من اعدائه الأمويين الذين وجهوا أهل الشام نحو المدينة لقتالهم، مقسماً بالله ان يأخذ ثأره منهم فيأسر نسوتهم ويقتل أبنائهم كما فعلوا بهم، اذ يقول[٢٩]:

والله أبرحُ في مقدَّمةٍ أهدي الجيُوشَ عليِّ شكَّيتهْ
حتّى أُفجِّعُهمْ بإخوَتهمْ وأسوقَ نسْوتهُمْ بنسْوتيهْ

الملاحظ، ان الشاعر ابن قيس في دعمه وتأييده لنزعته القرشية وعصبته المضرية لم يسلك فيها مسلك البرهنة والاحتجاج العقلي كمل فعل الكميت[٣٠]. بل فسح المجال أمام عاطفته الحزينة وجنح نحو الاساليب التصويرية التقريرية فانه (فرق بين العاطفة الدينية والعاطفة القبلية)[٣١].

ويقول راثياً طلحة الطلحات[٣٢]:

يتقي الذّم بالفعَالِ ويبْني مجْدَ منْ قدْ تضمنتْهُ القبورُ
بسجستانَ قدّسَ الله منهُ قد ثوى في الضَّريحِ خيرُ كثيرُ
خلفتْهُ لنا شمائلُ عبد الـ ـه لا جاحدُ ولا منْزُورُ

مدح الشاعر شخصية (طلحة الطلحات) ورثاها بعاطفة متأججة وصادقة وألفاظ عذبة، فمدحه بـ(صيغة الماضي بما يمتدح من صفات الشجاعة والكرم وعراقة النسب..)[٣٣].

ويقول أيضاً راثياً طلحة الخزاعي والي سجستان[٣٤]:

نضّـــرَ الله أعْظُمـــاً دفنُوهـــا بسجسْـــتانَ طلحـــةَ الطَّلحـــات
كـــانَ لا يحْـــرمُ الخليـــلَ ولا يعـــ تـــلُّ بالبخْـــلِ، طيـــبَ العـــذراتِ
سَـــبطَ الكـــفّ بـــالنَّوال إذا مـــا كـان حـودُ البخيـل حسـنَ العِـدات
ولَّدتـــهُ نســـاء آل أبـــي طلْـــ حـــةَ أكـــرمْ بهـــنّ مـــنْ أمهَـــاتِ
يهـــبُ اليُخْـــتَ والنّجائـــبَ والقَيْـــ ـنةَ تمشـي فـي الـرَّيْط والحِبـراتِ

وتتحول نزعته القرشية الى حنين وغربة واشتياق ولوعة وحزن لفراق القبيلة، فنجده يقول سائلاً الطلول في الماطرون فلا يصد عنها الجواب، متذكرا قومه وعشيرته حين كانوا ملوكاً في سالف الزمان[٣٥]:

فضُـــميْرُ فالمـــاطرونَ فحـــورا ن قفـــارُ بســـابسُ الأطـــلال
لـم تجبْنـي منهـا الطُّلـولُ ولـمْ أمـ لـــكْ دمُوعـــاً تســـيلُ كالأوشـــالِ
وتـــذكَّرْتُ معْشـــري وهـــمُ كـــا نـوا ملُوكـاً فـي سـالفِ الأحـوالِ
ملْكهُـــمْ صـــالحُ ودَهـــرُهمْ دهـــ ر نقـــيٌّ وَشـــرُّهمْ غيـــرُ عـــالي

يحن الشاعر الى وطنه وقومه وعشيرته، فيسال الاطلال، فلا تجيب، فيقف الشاعر متسائلاً ومتحيرا فتشده عاطفة جياشة وحنين وشوق الى قبيلته قريش.

ويقول أيضاً متذكراً ديارهم فيحن اليها[٣٦]:

كـلَّ يـومٍ ألقْـى ابـنَ شـانئهِ ليـ سَ عـن الشـرّ مـا اسـتطاع بـالي
حوْلـــهُ قوْمـــهُ وقـــوْمي بـــأرضٍ حـــرمٍ دونهـــمُ حنـــينُ الشَّـــمالِ
ومَلـــوكُ فـــارقتهُم افردونـــي وصـــرُوفُ الأيـــام بـــي واللّيـــالي

يعبّر الشاعر عن حنينه واشتياقه، الى قبيلته؛ وديارها التي ارتبطت به وأثرت في تكوين شخصيته وميوله النفسية، فعندما ابتعد عن أرضه وقبيلته اعتراه حنيناً لا يفارقهُ وذكريات اهله واحبته لذا هي (من علامة الرشد ان تكون النفس الى مولدها مشتاقة والى مسقط رأسها تواقة)[٣٧]. وكما قال البعض (اذا شئت ان تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده، وكرم اخلاقه، وطهارة مولده، فأنظر حنيه الى أوطانه، وتشوقه الى اخوانه)[٣٨].

فهنا يقف الشاعر مصوراً غربته وما سيطر عليه من ألم الفراق، وذكريات الأهل، اذ يقول حين كان بديار عامر[٣٩]:

وَأغْتـر ابـي عـنْ عـامرِ بـن لـؤَيّ بـــــبلادٍ كثيـــــرةِ الأقتَـــــالِ

من خلال ابياته وجدتهُ يمازج بين غراضه الشعرية، فانه يتخذ (المديح، الغزل، الفخر) منفذاً لنزعته القرشية، وتاكيدا على أصالة نسبه وعشيرته، وطيب اصله كما في قوله متغزلاً بأم البنين[٤٠]:

أُمَّ البنـــينَ ســـلَبتْني حلْمـــي وقَتلْتنـــي فتَحمَلَّـــي إثْمِـــي
وَتركْتنـــي أدْعُـــو الطّبيـــبَ ومَـــا لطيبـــبكُم بالـــدَّاءِ مـــنْ علـــم
بـــاللهِ يـــا أمَّ البنـــينَ ألَـــمْ تخشَـــيْ علْيـــكَ عَواقِـــبَ الإثـــمِ

فنجد الشاعر يتخذ غزله بأم البنين سلاحاً يواجه اعداء قبيلة قريش، وارضاءً لاهوائه السياسية[٤١].

فنجد مشاعر وعواطف الشاعر من خلال الابيات متباينة بين الصدق وحرارة الوجد وبين قوتها، كما يقول الباحث غانم جواد واصفاً ذلك: (فأنَّ الشاعر لم يتخذ هذا الفن للتعبير عن عاطفه حب مشوبه أو وصف لوعة محب صادفة، أو لتصوير ما ألم بالشاعر من بين وحرقة أو التياع قلب أكتوى بالهوى وتترى بناره)[٤٢]، ويؤكد الفكرة د. محمد حسين الصغير قائلاً: (فكأنما ينحت من صخر، أو يصقل في حديدة، لأنّهُ لم يقصد اليه موضوعياً)[٤٣].

لهذا نجد الشاعر ابن قيس الرّقيّات قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بقبيلته قريش، فأثرت على مخزونه الفكري والثقافي[٤٤].

وبعد فقد توصل البحث الى:

- كشف البحث عن شاعر قريشي سياسي كبير، وغزلي مرهف رقيق ذي ابداع شعري واضح.
- اظهر البحث معالم الابداع والتطور فيها، فوجه النظر نحو شاعر كان يعبر عن افكاره ومبادئه واهدافه الخيرة التي عكست نزعته، القريشية، وولائه المطلق لها عند طريق اعتناقه للمذهب الزبيري الذي مثل طموح الشاعر وهدفه في جعل حق الخلافة لقبيلة قريش وحدها، على ان يكون مركز الحكم الحجاز.
- قدرة الشاعر الفنية والابداعية في صياغة أساليب فنية متنوعة، كوحدة الغرض الموضوع، والواقعية فاكسب شعرهُ رونق التطور والابداع والتجديد.
- اجادة الشاعر في صياغة افكاره عن طريق عرض الاغراض الشعرية والمزاوجة بينها، في اظهار الغرض الرئيس هو تجسيد النزعة القريشية.
- قدرته على اختيار ألفاظه وصياغتها في نسق فريد ليعبر بهما عما يريد. فجاءت الفاظه رقيقه عذبة في تراكيب محكمة.
- قدرة الشاعر على التصوير الاشياء الواقعية، فاستطاع ان يرسم صورة شعرية

واقعية قريبة مألوفة، وقد اعانه على ذلك بيئته الحجازية الخلابة وواقع حياته الحضرية، مستعينا بالصورة الابداعية وعلى فنون بيانية بديعة.

- اظهر البحث ثقافة الشاعر ابن قيس الرّقيات الإسلامية، مجسداً ذلك في اشعاره وتصوير ألفاظه ومعايبها، لهذا يعدُّ شعرهُ انموذجاً خالداً مازجا بين الأصالة والتجديد مسخراً كل طاقاته الفنية والابداعية في ذلك.
- كشف البحث عن اعلام وشخصيات مرموقة في العصر الاموي، التي لها باع طويل في مجالات الحركة الادبية، ولها دور في تطور الادب وازدهاره.

قائمة المصادر والمراجع

(١) ينظر: الاغاني، ابو فرج علي بن الحسين الاصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، مطبعة مصورة عن دار الكتب وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة (د. ت)، باشراف: محمد ابو الفضل ابراهيم، هيئة المصرية للتأليف والنشر، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م: ٥/ ٧٦، انه عبيد الله بن قيس الرقيات بن شريح بن مالك بن ربيعة بن أهيب بن ضباب بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن النظر، فهو قرشي من جهة أبيه وأمه، ينظر: عبيد الله بن قيس الرقيات حياته وشعره، د. ابراهيم عبد الرحمن، مطبعة حكومة الكويت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦ : ٦٣-٦٨ ؛ ينظر: خزانة الادب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق ونشر: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، بمصر، ط٢، ١٤٠٢هـ- ١٩٨١م، ٧/ ٢٨٤.

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر- بيروت، ١٣٧٨هـ- ١٩٥٨م: ٨٩، ٩٠، [ويروى]: (ان منا النبي)، (ذاك منا)، ابن دومة: المختار، أي نغّص ابن دومة مُلكَة.

(٣) المصدر نفسه: ٤٥، ٤٦، انقى القراقير: هذا مثل يريد: ما كان من صغير نفيته، وما ان من كبير حطمته، الذرى: أعلى كل شيء، والمهرة: ذات مهر أي لم تسب، بنو ذكوان: حي من بني سليم، الضفيرة: حجارة تبنى من الماء مثل المُسَنّاة.

(٤) المصدر نفسه: ٤٦.

(٥) المصدر نفسه: ٥٠، [مراتب]: منازل، له مرتبة أي منزلة.

(٦) المصدر نفسه: ١٤٢، (وضنؤ). الضئن والضنؤ: النسل.

(٧) المصدر نفسه: ١٤٣، [ويروى]: (أرضها).

(٨) المصدر نفسه: ١١٤، ١١٥، خيفان: اذا نبت ريشه ولم يطرا فهو الكتفان، التجنيب: تفريج في أرجل الخيل وهو يستحب في الخيل ويكره في الابل، والتجنيب أعوجاج اليدين؛ [هزيم]: فرس جواد [أجش]: في صوته، [جرشع]: عظيم الجنبين، كأنه اذا جهد يصقل.

(٩) المصدر نفسه: ١١٥؛ السخال : موضع

(١٠) المصدر نفسه: ٦٠، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠.

(١١) المصدر نفسه: ١٤٦.

(١٢) المصدر نفسه: ٤٩، ٥٠، لا يطبي: أي لا يدعوه يقال: طباه يطبوه، واطباه يطبيه اذا دعاه اليه؛ هناته [ويروى]: وهنيئة سلمى)؛ السلم: الصلح، (يلصح) [ويروى] (الغارب) [وهو] مقدم السناء؛ و[يروى]: (الجالب) و(بلى).

(١٣) المصدر نفسه: ٨٩.

(١٤) المصدر نفسه: ٨٨.

(١٥) ينظر: تاريخ الادب العربي، حنا الفاخوري، مطبعة البولية، بيروت، (د.ت): ٣٠٦، ينظر: تاريخ الشعر السياسي الى منتصف القرن الثاني، احمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٥، ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م: ٢٥٧.

(١٦) المصدر نفسه: ١١٧، ١١٨، بالعلى: و[يروى]: (بالتقى)؛ [ويروى] (ولبطن عائشة)؛ ويقصد بعائشة هنا انصبت القصيدة في مديح عبد الله خالة اخت اسماء بن ابي بكر والخالة ام.

(١٧) المصدر نفسه: ١٢٤، مقنيها: [المقنب]: خمسمائة الى الالف، الفج: الطريق والجمع فجاج، والمقنب ما بين الخمسين الى الستين والجمع مقانب، برابية: [ويروى] (برايته)، يمر بها: يستخرج ما عندها كما يمرى الضرع، يستخرج ما فيه من اللبن، واصل المري: المسح، ويذكيها: يوقدها ويشعلها، وكوكبها: معلمها.

(١٨) المصدر نفسه: ٩٠، ٩١؛ غلاء: غال، لا يقدر عليه، والضرب عال لا تقدر عليه كل انسان، يقللوك: (يُضلِّلُوك).

(١٩) المصدر نفسه: ٩١؛ العماء: السحاب، جبروت [ويروى]: جبروت منه ولا به كبرياء؛ الضِّراب :لا يقدر عليه كل انسان

(٢٠) المصدر نفسه: ١٥٢؛ راح: و[يروى]: (راح)؛ إضم: جبل.

(٢١) المصدر نفسه: ١٥٢، عشنا و[يروى] (غنما)، يقول يغنمون اذا راونا كانا غنيمة عندهم، و[يروى]: (تكثر)؛ بابليون: اسم عام لديار مصر في لغة القدماء، وقيل هو أسم لموضع الفسطاط خاصةً

(٢٢) المصدر نفسه: ١٤، بيضاء: نقية من الدنس، يقول: هو ملك يستظل في بيته لانه طويل كبير، الهاء في لفظة (سببه) للبيت أو للجوهر.

(٢٣) المصدر نفسه: ١٩١.

(٢٤) المصدر نفسه: ٣٩، ٤٠، [النصاب]: الاصل، [يروى]: (والاشراف)، ويروى: عوده في العيدان، ويروى: (وفي العيدان عود خلاف، وينظر: المصدر نفسه: ٨٢، ٨٣ ؛ [مع الاخفاق]: مع خدمها، والاسعاف، ان يسعف من ساله بحاجته، وبقا: لغة طيء، ويروى (وفي سلام كفاف)، و[غاف]: شجر بعمان، [ويروى]: (غصن). [نضير].

(٢٥) المصدر نفسه: ٥، ٦، ابو العاصي: يعني عبد الملك بن مروان، الحفيظة: الغضب، حربوا: غضبوا.

(٢٦) المصدر نفسه: ٥، ٦.

(٢٧) المصدر نفسه: ١٩٦؛ وينظر: المصدر نفسه: ٩٩، ٩٥، ٩٦.

(٢٨) المصدر نفسه: ٧٩، وضمنا: فضمنا، عبد الواحد بن ابي سعد بن قيس بن وهب بن وهبات بن خباب بن حجير بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي، ينظر الديوان: ٧٩.

(٢٩) المصدر نفسه: ١٠٠، ابرح: ابن لا ابرح، شكيته: السلاح السابع، ينظر: المصدر نفسه: ٩٦.

(٣٠) ينظر: شرح الهاشميات، للشاعر الكميت بن زيد الاسدي (ت ١٢٦هـ) مطبعة مدن مصر، ط٢، (د. ت)، ٢٢، ٢٣.

(٣١) روائع الادب في العصور العربية الزاهرة: عصر الراشدين وبني امية، د. محمد نبيه حجاب، شرح وتعليق، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣م، ١٠٦.

(٣٢) الديوان: ١٧، جاحد: قليل الخير.

(٣٣) نقد الشعر: قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بمصر، القاهرة، ١٩٧٨م، ٩٨.

(٣٤) الديوان: ٢٠؛ سبط الكف: أي ليس فيها تقبض عن من يساله، القينه قال الاصمعي: الامة في كل حالاتها.

(٣٥) المصدر نفسه: ١١٤، ويروى (فحوران) فصب الماطرون وهو حرف واحد كهيئة جمع، شبهه بنون الجميع على هجائين؛ الاوشال: مفردها وشل وهو الماء الغزير.

(٣٦) المصدر نفسه: ١١٣، ١١٤ ؛ شانئةٍ : مبغضةً . آلي (من ألا) : مقصر.

(٣٧) ديوان المعاني: ابو الهلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، عنيت بنشره مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٢هـ، ٢/ ١٨٧، محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء حسين محمد الراغب الاصبهاني، العامرة الشرقية: مصر، ١٣٢٦هـ: ٤/ ٦٢٠.

(٣٨) مطالع البدور في منازل السرور: علاء الدين بن عبد الله البهائي القزولي، ادارة الوطن، مصر، ١٢٩٩هـ: ٢/ ٢٩٢.

(٣٩) الديوان: ١١٣؛ الاقتال: الاعداء، قتل واقتال.

(٤٠) المصدر نفسه: ١٤٩.

(٤١) ينظر الغزل عند العرب: ابو رحاب حسان، القاهرة، ط١، ١٣٦٦هـ- ١٩٤٧: م: ٢٠.

(٤٢) الغزل السياسي في العصر الاموي: غانم جواد رضا، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٣م، ٦٥.

(٤٣) الصورة الادبية في العصر الاموي: رسالة مقدمة من الباحث محمد حسين الصغير الى مجلس كلية الاداب- جامعة بغداد- ماجستير في اللغة العربية، البحوث والدراسات: ٢٧١.

(٤٤) ينظر: شعر عبيد الله بن قيس الرقيات دراسة موضوعية فنية، جنان فاضل علي الجعيفري، رسالة ماجستير، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، ٥٤.